الجمهوريـــة الجزائريـــة الديمقراطيـــة الشعبيـــة

وزارة التعليـم العالي والبحث العلمـي

جامعة الأمير عبد القادر
للعلوم الإسلامية - قسنطينة

معهد الحضارة الإسلامية
قسـم التاريـخ

دور بنى المجتمع الجزائري في مقاومة الإستعمار (1830-1900)

بحث مقدم لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر

إعداد الطالب:
الطاهر عمري

إشراف الدكتور:
أحمد ساري

قسنطينة 1998

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني: ردود الفعل الأولى: مقاومة البنية الإجتماعية-الثقافية

اتضح من المبحث السابق أن الأثار الأولى للغزو مست البنية السكانية و الإجتماعية-الثقافية.ومن هنا فإن ردود الفعل الأولى سوف تأتي من هذه البنية ذاتها. و بما أن بنية المدينة في الجزائر، تختلف عن بنية الريف، فإن مقاومة كل واحدة سوف تتميز عن الاخرى. و لذا فان تحليلنا سوف يأخذ هذا المنحى، أي أننا سوف نتناول مقاومة بنية المدينة، ثم مقاومة بنية الريف.

المطلب الأول: بنية المدينة في مواجهة الغزو

1- حالة المدينة بعد الغزو

لقد تم سنة 1834 تأسيس حكومة عامة للمتلكات الجزائرية في شمال إفريقيا، و كانت هذه الممتلكات، إلى غاية هذا التاريخ تتحدد بنواحي مدن الجزائر و وهران و بجاية و عنابة[1]. و في سنة 1848، توغل الإستعمار في البلاد، و اعلنت الجزائر أرضا فرنسية، و بدأت عمليات التعمير تحل محل العمليات العسكرية.[2]

و قد كان الوضع السكاني في مدينة الجزائر، مع بدايات الإحتلال يميزه تفوق عددي لأفراد جيش الاحتلال و المهاجرين الأوربيين على عدد السكان الأصليين من المسلمين و اليهود[3]. أما الأتراك فقد تم ترحيلهم كما ذكرنا سابقا.

و قد أدت هذه التحولات الجديدة،التي حدثت بالمدينة بعد الاحتلال، إلى تحول في البنية الإجتماعية، إذ لم تعد هذه البنية تشهد تميزا واضحا بين مكوناتهاالسكانية الأصلية مثلما كان الامرقبل الغزو، بل صارت المدن عبارة عن تجمعات حضرية مكونة من سكان جدد، أما الذين كانوا يقيمون بها من زمن طويل، فقد كانوا عددا قليلا.[4]

و قد لخص الرحالة **بوجولا** الوضع في مدينة بجاية، بعد زيارته لها، سنة 1848 بقوله: " لقد كانت هذه المدينة ، قبل الغزو تتوفر على ألاف من السكان ، و لم أجد بها اليوم سوى ثلاث عائلات عربية ، و مئات من الأوربين المدنيين، و كذا ثكنات العسكريين " [5]

---

(1) Agéront (CH.R). Histoire de l'Algérie contemporaine.(Que sais-je?). p.11

(2) Julien (CH.A). Histoire de l'Afrique du Nord. ed. Payot. Paris 1931. p.

(3) Lacheraf (M.). Op Cit. p.157

(4) Ibid. p.39

(5) Ibid. p.170

إن هذا التحول الذي حدث في الفئات الاجتماعية للمدينة يؤكد ما أشرنا اليه سابقا من عنف الصدمة بين بنى المجتمع الجزائري الأصلية و الإستعمار. و هذا ما أكدته- فيما بعد- الأحداث الجزئية والمعزولة، بين 1830-1871، إذ اتضح وجود بنيتين إجتماعيتين **متصادمتين** في نمط الحياة. و يظهر ذلك من خلال موقف الإستعمار، الذي كان يسعى-في النهاية- إلى **فرض السلطة** على المجتمع الجزائري([1]) و إزالة كل العوائق التي تقف في طريقه.

و إذا أخذنا في الإعتبار أن مؤسسات المجتمع و ثقافته هي التي تصنع تاريخه، و هي التي تستجيب، للتحديات المفروضة عليه في الزمان و المكان، فإننا يمكن أن نؤكد على كون المؤسسات المكونة للبنية الإجتماعية - الثقافية الجزائرية،و التي تشكلت تاريخيا، و كانت حاضرة غداة دخول الإستعمار، هي التي أخذت على عاتقها مهمة الدفاع عن المجتمع ([2]) في مواجهة قوة سياسية و عسكرية غير إسلامية، ممثلة في الإستعمار الفرنسي ([3]).

و ينبغي التأكيد -هنا- على أن سقوط الدولة المركزية في الجزائر عام 1830، لم يؤثر على البنية الإجتماعية- الثقافية. ذلك أن جهاز الدولة العثمانية -في حد ذاته- لم يكن نتاجا لعلاقات إجتماعية، بل ناتجا عن علاقات سياسية، قضى عليها تدخل أجنبي مسلح في أيام قليلة ([4]) .و نؤكد-أيضا-على أن الثقافة " التي تكتسب عبر التاريخ بصعوبة كبيرة، تشكل ملكية المجتمع الأكثر رسوخا. بحيث أننا عندما نعتقد أنها قد تحطمت تماما، تعود و تظهر في سلوكات أفراد المجتمع بكل تلقائية " ([5])، و خاصة لدى نخبة المجتمع من علماء و أعيان سواء تعلق الأمر بالمدينة أو الريف. و بما أن تحليلنا -هنا- ينصب على المدينة، فإنه من المفيد لموضوعنا أن نعرف خصوصية النخبة في المدينة، لكي نضع تصرفاتها و مواقفها من الاستعمار في إطارها التاريخي.

إن الملاحظة العامة التي تبدو -في راينا- اهم عنصر يفسر لنا مواقف النخبة في المدينة، تتعلق بطبائع أهل المدن، الذين يصفهم إبن خلدون بكونهم " ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة، و الدعة و انغمسوا في النعيم و الترف و اعتمدوا على الدولة في حمايتهم و الدفاع عنهم، و صاروا بذلك في منزلة النساء و الولدان، الذي هم عيال على أبي مثواهم، حتى صار ذلك خلقا يتمنزل منهم منزلة الطبيعة " ([6]).

إن هذا الحكم، من عالم إجتماع خبير بطبائع أهل المغرب، هو - في نظرنا- رغم قسوته، أقرب

([1]) Ibid. p. 27

([2]) Taliadoros. Op.Cit. p.18

([3]) Ibid. p.47

([4]) عدي (الهواري)،المرجع السابق، ص ص.32-33

([5]) Nadir (A.). Op.Cit.Art. cite. p. 863

([6]) إبن خلدون (أبو زيد، عبد الرحمن) ، المقدمة ، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1982، ص.218

لتصوير الواقع من النظريات الغربية التي يحاول البعض فرضها على التاريخ الجزائري، بطريقة تعسفية، تقمع كثيرا من العناصر الضرورية لفهم الأحداث، في إطارها البنيوي الشامل.ان القهر الذي عاناه مجتمع المدينة في الجزائر، أواخر العهد العثماني، يكون قد أضعف العزائم و أذهب الباس لدى سكان المدن.ذلك أنه حسب أبن خلدون-دائما-من وقع عليه العقاب و لم يدافع عن نفسه فإن ذلك " يكسبه المذلة التي تكسر من سورة بأسه بلا شك.. "([1]).

و داخل هذا الإطار من التحليل الإجتماعي الخلدوني يمكن أن نقترب من فهم مواقف النخبة الحضرية، في المدن و ردود فعلها تجاه الصدمة التي عرفها المجتمع الجزائري.غير أن هذه النخبة لم تكن تقف على مستوى واحد من حيث التفاهم و الطموح و المصالح التي تتنازعها. كما أنها لم تكن تنظر للإستعمار من موقع واحد ([2]). ولذلك -في رأينا- سبب تاريخي ،اذ يذكر Boyer أن " الأتراك كانوا يمارسون السياسة مع النخبة المثقفة ،اذ كانوا يحمونها ويقدمون لها الهدايا الثمينة ،ويعطونها امتيازات خاصة ، ولا سيما العلماء الذين كانوا يمثلون الرأي العام بالتعبير المعاصر "([3]) و كان بعض أفرادها يمتلكون أفقا سياسيا واسعا، بإعتبارهم كانوا مطلعين- خلال القرن التاسع عشر- على أحداث الغرب والعالم الاسلامي، و متأثرين ببعض الأفكار الحديثة أنذاك([4]). و لكن مع هذا فلا ينبغي التضخيم من شأن هذه النخبة لأن "إقصاء الإستعمار لها من الميدان كان سريعا"([5]).

و ترجع سرعة إقصاء هذه النخبة -في نظرنا- إلى القضاء على القاعدة الإقتصادية التي كان يستند إليها، والتي كانت قائمة- اساسا- على الحرف و التجارة. إذ أدى دخول العنصر الأوربي بكثافة في المدن إلى ضعف التجارة و غلاء المعيشة، و تحول التجارة لصالح المعمرين([6]). كما ادى هذا الوضع إلى كسر وتيرة تطور هذه النخبة داخل اطارها الإجتماعي - الثقافي([7]). و لم تحن سنة 1850، حتى كانت المدن الجزائرية قد " خسرت نخبتها الأكثر إستنارة ووعيا ".([8])

و قبل الوصول إلى هذه النهاية المحزنة، فقد دافعت النخبة في المدن عن وجودها بطرق إيجابية أو سلبية، و لكنها- على أية حال- طرق تؤكد وجود البنية الإجتماعية -الثقافية، التي تقاوم آثار الصدمة

([1]) نفسه، ص .220

([2]) سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية. ج1، ص.109

([3]) Boyer ,L'évolution de l'Algérie médiane .p.161

([4]) Lacheraf (M.). Op.Cit p.49

([5]) Histoire sociale de l'Algérie. In. études sources et documents. Oran 1983. N° 8 . p.11

([6]) Lacheraf. Op.cit. p.158

([7]) Ibid. p p .177-178

([8]) Ibid. p . 179

الإستعمارية . و سنلخص في ما يأتي جوانب هذه المقاومة، في مواقف الأعيان و العلماء، و سوف نخص مقاومة مدينة قسنطينة بتحليل خاص، لقناعتنا بأهمية ذلك لموضوعنا.

2- الأعيان و رجال السياسة:

إن الجزائريين، من شرق البلاد الى غربها ، بدأوا يتأكدون- مع مرور الوقت- بأن الإستعمار قد تمكن من احتلال جزء من البلاد، و بأن الحملة الفرنسية على الجزائر لم تكن مثل الحملات السابقة التي تضرب و تعود أدراجها.([1]) و من ثم فإن صورة **الأخرفي** أذهان الجزائريين بدأت تظهر بعض تقاطيعها. و سوف تتغير مواقف الجزائريين من الاستعمار -في نظرنا- تبعا لتغير هذه الصورة.

إن الجزائريين في هذه المرحلة وجدوا أنفسهم أمام وضع سياسي صعب ، يدفعهم الى تنظيم أنفسهم للمقاومة، والى البحث عن قيادة جديدة بعد أن سقطت السلطة العثمانية المركزية، كما سقطت القيادة الاقليمية في الغرب. ولا يخفى ان ذلك أمر شاق،خصوصا بالنسبة لشعب ظل قرونا طويلة لا يشارك في حكم بلاده، و لا يعرف عن العالم الخارجي إلا أشياء غامضة، فإذا به يقف غداة الإحتلال أمام أكبر دولة في العالم- في ذلك الوقت- من حيث الجيش و السلاح و العلم و التقنية([2]).

لقد ظهرت المقاومة المسلحة و المدنية مباشرة بعد إحتلال مدينة الجزائر، و ظهور جيش ديبورمونت أمام حصون مدينة وهران، بما فيها المرسى الكبير، وكذلك خلال الحملتين الفاشلتين على البليدة و عنابة. و بما أن ضرورات المنهج الذي إتبعناه تقتضي تأجيل الحديث عن المقاومة العسكرية، فإننا سوف نركز على المقاومة السياسية، التي كانت تمثل الرأي العام الجزائري في المدن، و التي كانت غداة الإحتلال محصورة في العلماء و الأغنياء و كبار التجار والذين يعبر عنهم بالأعيان.([3])

و يظهر أن أعيان المدينة الذين رضوا بالتفاوض مع الإستعمار في بدايات الحملة قد واجهوا أول صدمة لهم، و هم يشاهدون التخريب الذي لحق بنية المجتمع من جراء توغل الإستعمار، وهذا في حين كان بعضهم يستعد للإستفادة من الوضع الجديد، بعد طرد الإنكشارية و زوال سلطة الداي . خاصوصا بعد أن أعلن لهم الفرنسيون أنهم سوف يتركون لهم البلاد، بعد القضاء على سلطة العثمانيين بها([4]).

لقد صور حمدان خوجة هذه الوضعية التي كان يعيشها المجتمع في المدن بأبلغ عبارة ، إذ شبهه " بمركب غرق، و لم يعرف بحارته بأي جزء من أخشابه يتعلقون، لكي ينجوا من الهلاك الذي تهددهم"([5]). إن الأوضاع التاريخية التي كان يعيشها مجتمع المدينة-برأينا- هي التي أملت على الأفراد نوع

([1]) سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية. ج1، ص.32.

([2]) نفسه، ص.33.

([3]) نفسه، ص.109.

([4]) نفسه،ن. ص

([5]) الزبيري (محمد العربي)، المصدر السابق، ص.157.

المقاومة [1] و كذلك بأي جزء من مؤسسات المجتمع يتمسكون، لكي ينجوا من الهلاك الذي يتهددهم. وذلك استناد االى ما يقوله أصحاب الطريقة البنيوية من كون " البنيات تفرض نفسها على المجتمعات، على الرغم منها . و عندما يقتضي الأمرذلك تفرض نفسها ضدا عليها، ليس على صورة خيالات، بل على صورة أنواع من السلوك " [2].

وقد كان من الطبيعي، إذا نظرنا إلى بنية المجتمع، أن يصدر كل واحد من أعيان المدينة عن ثقافته و كذلك من موقع الدفاع عن مصالحه. و سنقتصربهذا الصدد على شخصيةجمعت-في راينا- كل تناقضات المجتمع آنذاك و هي شخصية حمدان خوجة، لأنه - على حد علمنا- من القلائل الذين تركوا أثارا منشورة تعبر عن رأيهم في هذه المرحلة. يقول عبد الجليل التميمي بهذا الصدد: أن " حمدان خوجة يعد الشخصية الجزائرية الوحيدة التي تمتعت بثقافة و اطلاع واسعين جدا ،والذي ترك عددا من الوثائق السياسية الهامة حول أحداث الجزائر أثناء الاحتلال الفرنسي "[3]. وبحكم المحيط الاجتماعي لحمدان خوجة،فقد حظي برعاية فائقة وتعليم رفيع .لأن معظم أفراد أسرته كانوا يحتلون مراكز اجتماعية وسياسية هامة في البلاد ،وهذا الذي ساعده -كما يقول عميراوي -على أن يثبت مكانة منفردة بين أترابه[4]

لقد كان حمدان خوجة ملما بعلوم الدين و متبحرا في اللغة و المنطق و الفلسفة ، و مطلعا على الأفكار السياسية المنتشرة و له إطلاع كبير على تاريخ الجزائر، و جغرافيتها، و ذلك ما يبدو جليا في كتابه **المرآة** و كان أيضا يميل إلى التصوف و يخدم الاصلاح [5].و لا نحتاج هنا إلى الوقوف على جزئيات حياة حمدان خوجة، و لكننا نؤكد على أنه كان قبل الاحتلال- كما قال هوعن نفسه " أحد كبراء و أعيان المدينة "، إذا كان من كبار الفلاحين و التجار داخل الجزائر، و كانت له تجارة خارجية مع إنجلترا.[6] و من هنا نفهم أن شخصية حمدان خوجة كانت مرتبطة بترف المدينة ، إذ كان " إلى جانب حبه لوطنه، متصفا بالدهاء السياسي، ميالا لكسب المال، محبا للترف، طموحا، مولعا بالسياسة.." [7]. الى جانب أنه كان مطلعا على العوامل المحركة للمجتمعاتوأجهزتها الحاكمة ،والدليل على ذلك هو طرقه لأهم الموضوعات التي تهم العلم الاسلامي في عصره [8]

---

(1) Lacheraf (M.). Op.Cit. p p .192-193

(2) الجابري (محمد عابد)، العقل السياسي العربي ، ص.12، عن : Regiss Debrey, critique de la raison politique (Paris: Gallimard, 1981)

(3) التميمي (عبد الجليل)، المصدر السابق ،ص.133

(4) عميراوي (احميدة)،دور حمدان خوجة في تطور القضية الجزائرية ،ط.1،دار البعث ،قسنطينة 1987 ،ص.70

(5) إبن عبد الكريم (محمد)، المصدر السابق، ص.96

(6) التميمي (عبد الجليل)، المصدر السابق، ص .134

(7) إبن عبد الكريم ، المصدر السابق، ص. 94

(8) عميراوي ،المرجع السابق ،ص.86

و إنطلاقا من هذه العناصر، يمكن أن تقترب من فهم مواقف حمدان خوجة الذي أظهر – آنذاك– سلوكا ذكيا مع المسؤولين الفرنسيين، من أجل الدفاع عن مصالحه و امتيازاته من جهة، و لغرض إفهام القادة الفرنسين معطيات البلد و عاداته من جهة أخرى (1). و لا يوجد –في رأينا– أي تناقض بين الهدفين، اذ أن إمتيازات سكان المدن و مصالحهم كانت مرتبطة بالمحافظة على بنية المجتمع، بجميع مؤسساته، و هذا ما كان– في رأينا – يحمسهم للدفاع عنها.

و قد كان حمدان خوجة يصرخ بوجه الإستعمار قائلا : " إنني أتساءل : لماذا يعمل الإستعمار على زعزعة جميع القواعد الأساسية، التي يقوم عليها المجتمع في بلدي، و لماذا تضرب جميع قواعده الحيوية؟" (2).و يستند حمدان خوجة إلى التاريخ لكي يؤكد على أن قوة الجزائريين تكمن في المبادئ الأخلاقية التي تشكل قاعدة مؤسساتهم (3).و عبر – ايضا– في كتابه المرآة عن الكيان الجزائري سياسيا. إذ اعتبر أن هدا الاخير له حق الوجود مثل الكيان البلجيكي، و اليوناني و البولندي، و رأى أنه يختلف عن فرنسا، لأنه لا يوجد بينهما تشابه في الدين و اللغة و التقاليد.(4)

و يمكن أن نلاحظ جدة هذه الموضوعات بالنسبة إلى العالم العربي الإسلامي في ذلك الوقت، أي سنة 1833، كما نلاحظ ميل حمدان خوجة إلى القيم الليبرالية التي يعتبرها غير متناقضة مع قيم الإسلام. و كان قد طالب –أيضا– بإنسحاب الجيش الفرنسي من الجزائر و إقامة دولة جزائرية مستقلة، على غرار ما تم في مصر، التي كان لها نفس الدين و نفس التقاليد مثل الجزائر(5). وقد كان حمدان خوجة يعتقد أن الاشتراك في الدين و الثقافة ،بين السكان الاصليين والاستعمار، مسألة رئيسة لسير جهاز الدولة و استمراره، و تفادي انفجار موجات التعصب وسط الجزائريين. و عنصر الدين هذا– في رأي حمدان خوجة– هو الذي " جعل الفاتحين الأوائل يبقون في الجزائر إلى يومنا هذا "(6)

و الملاحظ أن كل محاولات حمدان خوجة، كما نقرأها من خلال كتابة و مذكراته كانت– إلى غاية رحيله الى باريس سنة 1833، تهدف إلى تخفيف اثر الصدمة عن الجزائريين و مؤسسات المجتمع الجزائري. إذ نجده يطالب بتنفيذ بنود إتفاقية الإستسلام ، و يعارض طرد الأتراك و الإستيلاء على

---

(1) التميمي،المصدر السابق، ص.134.

(2) Khodja (H.). Op.Cit. p. 37

(3) Ibid. p.47

(4) Ibid. p.38

(5) Ibid. p.29

(6) Ibid. p.47

المساجد، و يدافع عن المفتي الحنفي محمود بن العنابي، و يندد بهدم الأملاك الخاصةدون تعويض لملاكها، و بالضرائب الثقيلة على كاهل الجزائريين، و جميع أنواع المصادرات الأخرى .([1])

إن ما يميز حمدان خوجة، مقارنة مع **بوضربة**، الذي كان يفخر بإنتسابه إلى الأمة الفرنسية و يعمل على توغل الإستعمار ([2])، هو أن حمدان كان مندمجا في ثقافته العربية الإسلامية و وفيا لمؤسسات بلاده، رغم تأثره بأفكار الثورة الفرنسية. كما أنه عبر – في وقت مبكر – عن أفكار كثيرة سوف تعبر عنها بعد عقود طويلة النخب الجزائرية في المدن، مع بداية القرن العشرين، ولكن في وضع مختلف يتزامن مع تحطم البنى الأصلية للمجتمع الجزائري.

و مهما تكن جدة الأفكار التي بشر بها حمدان خوجة، فإن فعاليتها لم تكن كافية وحدها لحماية مؤسسات المجتمع، لأن واقع الإستعمار ذاته كان يقتضي **نفي**" الأخر " و بناه الأصلية. و لعله يمكن إرجاع فشل حمدان خوجة– أيضا– إلى كونه رضي بمجرد الحوار مع الإستعمار، دون إنحياز إلى المقاومة المسلحة، و لعل هذا ما جعل أفكاره لاتجلب اليها أنصارا كثيرين.([3]) وهذا هو ما أدركه حمدان خوجة بعد رحيله نحو إسطانبول سنة 1836، حيث استمر إلى وفاته ، سنة 1842 ، يدافع عن الباي أحمد و الأمير عبد القادر ، ويدعو السلطات العثمانية لمساعدتهما، و يؤكد لها أن " الفرنسيس (كذا) لا تخرج من الجزائر إلا بقوة سلطانية، و مواعيده (كذا) لا أصل لها " ([4]). و يمكن أيضا إرجاع فشل حمدان خوجة في مهمته، إلى كون تأثير العاصمة– خصوصا– لا يمتد بعيدا في داخل القطر الجزائري([5])، و بالتالي فإن أفكاره–رغم بريقها و جدتها– ظلت حبيسة مدينة الجزائر.

و هناك مسألة أخرى، نحب أن نؤكد عليها بالنسبة لأفكار حمدان خوجة، ترتبط ببنية المجتمع ذاته. ذلك أن النقاش –في راينا– يتنبغي أن لا يتركز حول الموضوعات الأيديولوجية كالوطنية و القومية و الجامعة الإسلامية، خاصة في هذه المرحلة التي ظلت فيها بنية المجتمع الجزائري إستمرارا للماضي. و حتى لو ظهرت هذه الأفكار و الأيديولوجيات لدى أفراد قلائل داخل المجتمع، فإنها – برأينا– لم تكن تجد البنى التي تتدرج فيها، باعتبار هذه الأفكار نفسها هي نتاج صيرورة تاريخية خاصة بالبلدان التي ظهرت فيها، و العوامل التي أبرزتها إلى السطح . و سنجد أن هذه الأفكار نفسها سوف تأخذ مجراها الطبيعي في الجزائر، بعد المرور من **مرحلة البنى الاصلية الى مرحلة الأيديولوجيا** . إذ أصبح مجال تطورها متوفرا

([1]) Ibid. p.20

([2]) الزبيري ،المصدر السابق، ص .144

([3]) نفسه، ص.139

([4])التميمي ، المصدر السابق، ص.167

([5]) Emérit (M.). l'Algérie à l'époque d'Abdelkader . p. 236

بعد تحطم هذه البنى و توغل الرأسمالية و انتشار الصحافة.

و كل مايمكن قوله في الأخير، هو أن حمدان خوجة قد وصل، في حواره مع الإستعمار، بعد سنة 1833، إلى طريق مسدود. و قد رأى أن توغل الإستعمار في المجتمع الجزائري أمر مستحيل، و لن يتحقق إلا بأحد أمرين : الإفناء العرقي للسكان او إفراغ البلاد من سكانها الأصليين عن طريق تهجيرهم منها([1]) .و الملاحظ هو أن الإفناء العرقي قد بدأ بدخول الإستعمار، أما الهجرة فكانت فكرة سائدة لدى بعض فئات المجتمع الجزائري و خاصة العلماء.

3- العلماء و الهجرة:

نريد أن نؤكد -في البداية- ان الهجرة في هذه المرحلة، وإلى غاية بدايات سقوط الأمير عبد القادر، ظلت ظاهرة خاصة بالمدينة وحدها.وذلك بإعتبار أن الإستعمار في بداياته مس المدن الساحلية بصفةخاصة، و بإعتبار أنه في البنية الإجتماعية- الثقافية للمدينة، كان الفرد يتمتع بإستقلالية جزئية أو تامة عن القبيلة و عن الطرق الصوفية ،كما سبق أن أوضحنا في الفصل التمهيدي من هذا البحث. و سوف نرى فيما بعد، أن الأمر سيكون مختلفا بالنسبة للريف، الذي لم تظهر حركة الهجرة به إلا في وقت متاخر.

و ترجع دوافع الهجرة، في معظمها، إلى تأثر البنى الإجتماعية- الثقافية، في المدينة، بدخول الإستعمار.و قد أخذ العلماء على عاتقهم مهمة تحريك موجة الهجرة، أو معارضتها بإعتبارهم يمثلون الإسلام، الذي هو محور الثقافة داخل المجتمع. و ما يهمنا بهذا الصدد هو أن نعرف عناصر النقاش الذي دار بين علماء الإسلام في الجزائر حول مسألة الهجرة، ثم نحاول تقييم نتائجها على بنى المجتمع الجزائري.

لقد ظهر الخلاف بين علماء الجزائر في المدن حول مسألة الهجرة مباشرة عقب الإحتلال. ذلك أن العلماء الذين هاجروا من الجزائر العاصمة والتحقوا بالمقاومة المسلحة، أو خرجوا من البلاد متجهين نحو المشرق أو المغرب العربيين، كانوا قد افتوا بكفر من بقي من السكان في الجزائر راضيا بأحكام الكفار.

وكان من بين هؤلاء العلماء، **علي بن الحفاف** الذي إلتحق بالأمير عبد القادر و تولى إدارة ديوان الإنشاء بمليانة([2]) و بعد سقوط دولة الأميرعبد القادر ، هاجر ابن الحفاف نحو مدينة فاس، ثم نحو المدينة المنورة حيث اشتغل كقاض مالكي.([3])

([1]) Khodja (H). Op.Cit. p.27

([2]) البوعبدلي (المهدي)" جوانب مجهولة من آثار زيارة محمد عبده للجزائر"، **الأصالة** - الجزائر: عدد 54-55 (1978)، ص.73

([3]) Adala (M.). Op.Cit. p.221

وقد كان دعاة الهجرة من الجزائر، يحكمون بالخيانة على العلماء الأخرين، بإعتبارهم قد رضوا بتولي وظائف في مؤسسات الإستعمار، تحت سلطة الكفار (1). و يظهر أن أصحاب هذا الإتجاه الداعي الى الهجرة كانوا يحرصون على جعل عملية الإستعمار أمرا مستحيلا،وذلك عن طريق إفراغ البلاد من نخبتها القيادية المتمثلة في علمائها، ووضع الفرنسيين أمام الأمر الواقع، بإثبات عجزهم عن تسيير مؤسسات المجتمع،خصوصا وأن الإستعمار في هذه المرحلة كان يعاني من إشكالية الفهم.

و ينبغي أن لا يغيب عن بالنا -أيضا- أن العوامل الإجتماعية و الإقتصادية لعبت دورا رئيسيا في حركة الهجرة داخل المدن. و يرجع الأمربالدرجة الأولى إلى التأثير الإستعماري على البنية الإقتصادية الأصلية لصالح المعمرين(2). و قد تحدثت الشهادات التاريخية عن العديد من العائلات الجزائرية التي كانت ثرية فأصبحت في عهد بيجو و غيره ضحية الفقر. و من تلك العائلات عائلة ابن الحفاف و مصطفى باشا، و علي بن عيسى ، و حمودة الفكرن، و بعض العائلات في بجاية.(3)

كما لعب الدافع الثقافي دورا بارزا في حركة الهجرة،ذلك أن سكان المدن كانوا يحاولون الهروب من ضغط الإستعمار، و يبحثون عن مجال ثقافي يوافق أذواقهم الإجتماعية في المدن البرجوازية مثل **تطوان** في المغرب الاقصى و **الاسكندرية** بمصر، و**دمشق** بسوريا، و **أزمير** و **اسطنبول** بتركيا.(4)

و يؤكد بعض المؤرخين أن الدافع وراء حركة الهجرة نحو المغرب الأقصى - خصوصا- يرجع إلى الخوف من المحتلين من ناحية، والىالفكرة الدينية من ناحية أخرى.ذلك أن المهاجرين كانوا،آنذاك، يحرصون على الإبتعاد عن المسيحيين ، خوفا من أن يضايقوا في ممارسة شعائرهم الدينية.(5)

و نركزهنا على أن الجزائريين خلال حركة الهجرة كلها في هذه المرحلة، كانوا يحتكمون إلى مذهبهم السياسي . إذ كانوا يرون انه لا يجوز لهم أن يقبلوا بالبقاء تحت **سلطة كافرة**. و يذكرفي هذا الشأن أن مجموعة من الجزائريين الطاعنين في السن، قد توجهوا إلى الحكومة الفرنسية بطلب الترخيص لهم بالهجرة نحو تونس من أجل أن تكون وفاتهم و أخر أيامهم في ظل حكومة مسلمة.(6)

و لكي لا نـنزلق نحو التفسير بالعنصر الواحد أو ببعض العناصر المستقلة، بالنسبة لموضوع الهجرة، فإننا نطرح السؤال التالي: **ما الذي يجعل مجتمعا كاملا يتطلع نحو الهجرة؟** علما أن الأمر لا

---

(1) Ibid. p.222

(2) Ibid .

(3) سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، ص.251

(4) Lacheraf . Op.Cit. p.39

(5) Rager (M.J.J). Les musulmans algériens en France et dans les pays islamiques. Paris 1950, p.32

(6) Ibid. m p

يتعلق بالبدو الرحل، و لكن بسكان المدن الذين تعودوا على الإستقرار و غلب على أكثرهم ترف المدينة؟ إن المسألة تتعلق -في نظرنا- بأمر فوق الرفاه المادي. ونورد هنا رأي BOYER الذي يقول بهذا الصدد: "لقد كان هناك عامل نفسي أدى الى التوجه نحو الهجرة ،وهو شعور سكان الحضر القدامى بالمرارة الناتجة عن معاشرة سكان جدد يجهلون عاداتهم وتقاليدهم ،ولم يكونوا ذوي طبع حضري "([1])

.ثم ان وجود سكان المدن و بقاءهم كان مرتبطا ببقاء بنية المجتمع في المدينة. و ما دامت هذه الأخيرة مهددة بالتحطيم من طرف الإستعمار فإن بقاءهم يصبح في خطر .

ان هذا الرأي المؤيد لفكرة الهجرة لم يكن وحده- أنذاك- في الميدان.فقد كان **محمد بن الشاهد**، وهو عالم ومفت وصفه معاصره أبو راس الناصر بأنه "عالم الجزائر وقطب رحاها"([2]) يرد على إنتقادات زملائه، مبرزا العوائق المادية التي تقف أمام حركة الهجرة. يقول هذا الأخير ردا على زميله ابن الحفاف : " ... كيف يمكن مغادرة البلاد، إذا علمنا أن طلبة العلم لا يملكون وسائل الهجرة، التي تتم عن بطريق البر " . ثم يتساءل : " ..هل يضمن المهاجر حسن الإستقبال من الجهة التي يلجأ إليها "([3]). ويضيف ابن الشاهد -يضا- إذا لم يكن من الأفضل البقاء في الجزائر، ما دام المسلم غير ممنوع من أداء شعائره الدينية.([4])

و يظهر أن ابن الشاهد كان حريصا على البقاء في الجزائر، لإنقاذ ما يمكن إنقاذه. وهذه كانت فكرة حمدان خوجة أيضا، الذي كان يرى أن فرنسا نفسها كانت تسعى- بشتى الوسائل- لإخراج هؤلاء العلماء و الوجهاء، لكي يخلو لها الجو، و يتسع لها المجال، و لتفعل ما تشاء بعامة الجزائريين([5])، و كذا بمؤسساتهم و بناهم الإجتماعية-الثقافية.

و لعل وجاهة هذه الأراء المعارضة للهجرة هي التي جعلت دعاتها، و منهم ابن الحفاف نفسه، يعودون إلى الجزائر و يقبلون بالوظائف الرسمية. و يذكر ان ابن الحفاف ، في حوار له مع كاتب تونسي، صرح أن بقاء العالم في وظيفته لخدمة الشعب هو أفضل من الهجرة بدافع الخوف على ذاته([6]) .

إن هذا الحواربشأن الهجرة كان يدور في قمة المؤسسة الثقافية في المدن الجزائرية. أما بقية المجتمع فقد كانت- حينها- تتعرض، بصورة يومية ومباشرة، لصدمات عنيفة مع الإستعمار. و قد تحدث السكان فيما بينهم بأن هدف الإستعمار هو" إستئصال العرب، و تجريدهم من ذخائر وطنهم ". و إذا وجد

([1]) Boyer, l'évolution de l'algerie médiane, p.130

([2]) سعد الله (أبو القاسم)،الشاعر المفتي محمد بن الشاهد واحتلال الجزائر ، مرجع سابق ،ص.11

([3]) Cf. Berque (J.). l'initiateur du Maghreb. in: Adala (M.). Op.Cit.p.223

([4]) Ibid.

([5]) إبن عبد الكريم ، المصدر السابق، ص.154

([6]) Adala . Op cit. p .225

بين الجزائريين من يتظاهر بالطاعة للسلطة الفرنسية فهو – غالبا– عاجزعن مقاومة، و مجرد من حرية اليد و اللسان.([1]) أما القادرون فقد اختار معظمهم طريق الهجرة نحو دواخل البلاد أوالى الخارج.

يقول BOYER بهذا الصدد:"خسرت العاصمة بسبب الهجرة ثلثيسكانها المسلمين ،وقد كان المهاجرون يؤجرون أو يبيعون أملاكهم،مما أدى الى تحولات كلية في قاعدة الأملاك الحضرية بالجزائر " ([2]) و بعد إحتلال مدينة وهران سنة 1833، خرج سكانها و تفرقوا في الشعاب ([3]). كما غادر سكان عنابة و بجاية في نفس العام مدنهم ([4]) و نفس الأمر حدث لمدينة قسنطينة سنة 1836([5]) و كذلك مدينةالمدية، التي يصفها أحد الضباط بعد غزوها الأخير سنة 1836، بقوله أنها "أفرغت من سكانها، الذين حملوا معهم كل شيء."([6]). كما هاجر السكان من معسكر، بعد نقض معاهدة التافنة، و أفرغ الأمير عبد القادر مدينة تلمسان من جزء كبير من سكانها.([7])

أما عن نتائج هذه الهجرة الفردية و الجماعية، فيمكن القول أنها كانت قد أفرغت المدن الجزائرية– تقريبا– من سكانها الأصليين، الذين بدأ يحل محلهم أعداد كبيرة من المعمرين، و الأخطر من ذلك أن المدن فقدت عناصرها القيادية الممثلة في الطبقة المثقفة و الثرية ([8]).

و لكن هناك جوانب إيجابية لحركة الهجرة في هذه المرحلة، إذ أنها تكون قد دعمت لدى الجزائريين مشاعر الانتماء إلى العالم العربي– الإسلامي.ويذكرأن المهاجرين الجزائريين صاروا يكونون أحياء سكنية خاصة بهم في كل من سوريا، و فلسطين، و مدن الدولة العثمانية الأخرى. و قد ظل كثير منهم على صلة وثيقة بأحداث الجزائر ([9]).

ولعل توجه كثير من الجزائريين نحوالمشرق– كما يذكرأحد المحللين– هو دليل على قناعتهم بأن ذلك **هومحيطهم الطبيعي** ، الذي يمكنهم أن يحققوا داخله جميع النجاحات التي حرموا منها في بلادهم ([10]).

و بذلك يكون الكبت الذي مارسته السلطات الفرنسية ضد الجزائريين قد وجد متنفسا له في الاتجاه نحوالعالم الاسلامي. و سوف يكون لهذه الهجرة آثار واضحة على الحركة الوطنية مع بدايات القرن العشرين. كما

([1]) إبن عبد الكريم ، المصدر السابق، ص. 211

([2]) Boyer, l'évolution de l'Algérie médiane, p.330-331

([3]) Lacheraf, Op.Cit, p.167

([4]) Ibid, p. 169

([5]) Ibid, p .170

([6]) Ibid, p.166

([7]) Ibid, p.168

([8]) سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج.، ص ص. 250-251

([9]) Lacheraf , Op.cit , p.39

([10]) Jaques (J.J) , Op Cit , p.9

أن هذه الهجرة الداخلية، رغم أنها كانت تدعم وجود الإستعمار في المدن، فانها- في رأينا- كانت تدعم المقاومة العسكرية في الريف الجزائري، كما كانت تدفع الإستعمار إلى التفكير في موقفه من المجتمع الجزائري، الذي لم يكون عنه -إلى غاية هذا التاريخ- صورة صحيحة.

إن المدن الجزائرية بدأت، خلال هذه المرحلة، تفقد تدريجيا بنيتها الأصلية، لصالح بنية إجتماعية- ثقافية أوربية، وذلك بفعل الهجرة و توغل الإستعمار، و لكن -أيضا- بفعل ضعف المقاومة العسكرية داخل المدن.وسوف نحلل عناصر هذا الضعف من خلال الحديث عن مقاومة مدينة قسنطينة.

4-المقاومة العسكرية للمدينة (قسنطينة)

إن طبيعة موضوعنا تقتضي التنبيه إلى كون مقاومة مدينة قسنطينة هي مقاومة مجتمع بكامله،و ليست مقاومة **الحاج أحمد باي** وحده. ذلك أن سكان هذه المدينة، كما تذكر المراجع التاريخية، استماتوا في الدفاع عن مدينتهم. و لم يكونوا في الحملة الثانية خاصة، يهتمون بمدد السلطان العثماني ولا ببقاء الحاج احمد وانسحابه. بل انهم، كما يذكرسعد الله،كانوا قد قاوموا العدو بحضور الباي و في غيابه[1].

فالحاج احمد باي، حسب نفس المرجع، لم يكن له أي دور فعال، و لا تذكر المصادر التاريخية أنه قاد معركة بنفسه، أو أطلق ضربة مدفع، أو حتى خطب لتحميس السكان[2]. ومن ثم

فإن المقاومة تبدو تلقائية منطلقه من البنية الإجتماعية- الثقافية ذاتها.و هذه الملاحظة تفيدنا- مبدئيا- من حيث أنها تنقل مركزالتحليل من مناقشة شخصية أحمد باي و تصرفاته الفردية، إلى مناقشة بنية مجتمع مدينة قسنطينة، و القوى الثقافية – الإجتماعية المؤثرة فيها، خلال الحملتين الفرنسيتين عليها سنتي 1836 و 1837.

لقد كان سكان مدينة قسنطينة- كما يذكر **بوضربة** - يحقدون على الحاج أحمد، و لا ينتظرون سوى وقتا مناسبا للتخلص من طغيانه[3]. واستنادا إلى الشهادات المعاصرة، فان الحاج أحمد باي كان كثير الطموح، و لم ينشأ مثل الأمير عبد القادر في ظل أخلاقيات المجتمع، و لم يكن نموذجا للقائد الذي يعبر عن طموح الرعية، بقدر ما كان يمثل السلطة العثمانية التي عينته[4].

كما كان أحمد باي بعيدا عن قاعدة المجتمع، لا يختلط بها و لا يشاورها و لا يعين الرجال منها، وكان يستعمل في تعبئته للجماهير شعارات لم تعد ملائمة لتلك المرحلة، مثل ترديده أنه من رعايا الدولة العثمانية، و هي دعوى كانت تنفع في القرن السادس عشر، و لكنها لم تعد تجدي نفعا سنة 1837[5] . ذلك

([1])سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، ص.162

([2]) نفسه، ص.160

([3]) الزبيري ، المصدر السابق، ص. 123

([4]) نفسه، ص ص.115-118

([5]) سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1. ص156

أن السلطة العثمانية بالجزائر كانت -هي نفسها - منفصلة عن بنى المجتمع الجزائري . و لم يحاول أحمد باي خلال مقاومته أن يغير شيئا من هذا الوضع،في الوقت الذي كان الأمير عبد القادر في ناحية الغرب الجزائري يرسي قواعد دولة جزائرية بجميع مؤسساتها([1]).

و حتى لو لجأ أحمد باي إلى المفاوضات السياسية -مثلما يقترح ناصر الدين سعيدوني- في قوله : " إن أحمد باي لم يحاول إستغلال كل الظروف السياسية لصالحه و لخدمة المقاومة الجزائرية " ([2]) فإن النتيجة لن تختلف - في رأينا - عما حدث فعلا.ذلك أن السياسة في ذاتها تمارس تبعا لقوة بنية المجتمع و مؤسسات الدولة، و هو ما لم يكن يتوفر في إدارة أحمد باي لأن هذا الأخير نفسه، لم يتصور نفوذه قائما على قوة بنى المجتمع، و لكن على مواهب شخصية لدى الحاكم.إذ يقول، بمناسبة حديثه عن ضعف مكانة **الجنرال يوسف** في مدينة عنابة : " لكي يكون للمرء نفوذ، يجب أن تكون له ثروة عظيمة و مواهب كبيرة، و أن يكون عالما شجاعا و من أسرة نبيلة جليلة .." ([3]).

لقد كشفت الحملة الثانية على مدينة قسنطينة أمرين: أولهماأن الباي أحمد كان يتبع سياسة غير واقعية، إذ كان يعتمد كليا على الدولة العثمانية، التي كانت بدورهاغير واقعية لأنها كانت تطمح إلى تحقيق إتفاق مع فرنسا يضمن لها إستعادة الجزائر، بعد أن انخدعت بذلك الأسلوب الدبلوماسي الذي إتبعه الفرنسيون لتحييدهاعند غزوهم للجزائر([4]). و قد أدرك الباي أحمد نفسه عدم واقعية سياسته عندما كان مطاردا في الصحراء الجزائرية، إذ كتب إلى السلطان **محمود** يشكو إليه الإهمال الذي تركته فيه الدولة العثمانية، قائلا: " ...هل هذا هو جزاء ثقتي بكم، و هل نفذتم ما وعدتموني به منذ سبع سنوات؟ أليست طاعتي إليكم (كذا) هي التي قادتني إلى هذا الوضع المؤلم .."([5])

أما الأمر الثاني الذي كشفت عنه هذه الحملة فيتمثل في كون مقاومة الحاج أحمد-كما يقول سعد الله- كانت معتمدة على لقبه و على بعض الحصون و الأسوار و الأحكام الإدارية، و ليس على القلوب و الولاء و المبادئ، و بالتالي فإن خروجه من مدينة قسنطينة كان يعني نهايته([6]). و لكن، هل كان أحمد باي يستطيع أن يعمل غير ما عمل أثناء الحملة على مدينة قسنطينة؟ إن عناصر الضعف لدى أحمد باي- في رأينا- تكمن إلى جانب الأسباب السياسية التي ذكرنا، في أسباب أخرى متعلقة بالبنية الإجتماعية - الثقافية لمنطقة

([1]) Lacheraf , Op.Cit. p.181

([2]) سعيدوني (ناصر الدين)، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، ، ج2.، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1988، ص.213

([3]) الزبيري المصدر السابق، ص.45

([4]) سعيدوني ، المرجع السابق، ص ص . 220-221

([5]) الزبيري ، المصدر السابق، ص . 82

([6]) سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج.1، ص.162

الشرق الجزائري بأكملهاوالتي كانت اداريا تحت سلطة الحاج أحمد. ذلك أن هذه المنطقة كانت- مقارنة مع منطقة الغرب الجزائري- تتوفر على نقطتي ضعف مرتبطتين بدور القبيلة و الطرق الصوفية.

إن ما يلفت النظرفي منطقة قسنطينة، منذ العهد العثماني،هو أنها بخلاف منطقة الغرب الجزائري، لم تعرف تطور و انتشار الطرق الصوفية، و لعل ذلك كما يذكر أحد الباحثين(1) يرجع إلى سببين:يتمثل اولهما في كون بعض رجال الإصلاح المتأثرين بالأفكار الوهابية، و القادمين من سوريا و من مكة و مصر، كانوا قد حاربوا هذه الطرق و منعوا انتشارها في هذه المنطقة. أما الثاني فيرجع الى كون السلطة السياسية لهذه المنطقة ظلت بيد **رجال السيف** و **الشرفاء**، الذين كانوا يحاربون رجال الصوفية و المرابطين، في المناطق التي كانت توجد تحت سلطتهم، خاصة في منطقة الهضاب العليا. و لذلك فإننا نجد الطرق الصوفية و حركة المرابطين قد انحصرت في منطقة القبائل و الأوراس و الحضنة. و رغم وجود بعض هذه الطرق في بعض مناطق الواحات، جنوب مدينة قسنطينة، فإن سيطرة عائلات **الدواودة** و القبائل الرحل عرقلت تطورها سياسيا. و بالتالي فإن ناحية القبائل الشرقية وحدها، في منطقة الشرق الجزائري، هي التي عرفت تطورا و صعودا للطرق الصوفية و حركة المرابطين.

إن ضعف الطرق الصوفية، في هذه المنطقة من القطر الجزائري، منطقة قسنطينة، أو بايلك الشرق- كما كانت تسمى- يكون قد حرمها من الحماس الديني الذي كان من الممكن أن تغذيه هذه الطرق في المقاومة (2). و لكن ألم تكن النخبة الدينية، في مدينة قسنطينة قادرة على إذكاء روح الحماس، أو حتى الإستيلاء على السلطة، و قيادة المقاومة، بعد فرار أحمد باي ؟

إن عائلة **ابن الفكون**-كنموذج- في مدينة قسنطينة كانت تنتمي إلى طبقة الشرفاء ، و كان بينها علماء مشهورون. و كانت- مع دخول الإستعمار و قبله- تمثل النخبة الدينية الثرية، التي كانت تتمتع بالإستقرار الإجتماعي منذ قرون طويلة . فهل فكرت هذه النخبة في الوصول إلى السلطة، الأمر الذي - في نظرنا- لم يكن مستحيلا من الناحية المادية ؟

لقد حلل نفس الباحث (3) العوائق التي كانت تقف أمام هذه النخبة في تشكيل أي سلطة سياسية خارج السلطة العثمانية القائمة، و أرجعها إلى أسباب ثلاثة:

أولها: خضوع هذه النخبة خضوعا كاملا للسلطة المركزية و لنظام المخزن، والناتج عن حرصها الشديد في المحافظة على مناصبها و أرزاقها. و العمل الوحيد الذي كان يمكن لهذه النخبة الدينية أن تقوم به من

---

(1) Babes (L.), « saints, tribus et pouvoir politique dans le constantinois sous La domination turque ». C.R.D.S.S.H.Oran .(s.d).p.2

(2) Emérit (M.), l'Algérie à l'époque d'Abdelkader. p.235

(3) Babes (L.), Op cit. p p .19-20

الناحية السياسية كان يتمثل في إضفاء الشرعية على الباي الذي تعينه السلطة المركزية.

ثانيا: ان هذه النخبة من الشرفاء كانت تخاف من القبائل المجاورة التي كانت تهدد وجودها و مركزها ، و بالتالي فإنها كانت تعمل للمحافظة على الوضع السياسي و الإجتماعي القائم، من أجل حماية وجودها و إمتيازاتها.

ثالثا: إن الإصطلاحات التي أدخلها- من قبل- **صالح باي على شؤون الأوقاف**،بفرضه الرقابة الإدارية المباشرة على الوكلاء ، قد زادت من تبعية النخبة الدينية للسلطة المركزية، و بالتالي منعت بروز أي عمل سياسي مستقل لها .

و عندما دخل الإستعمار مدينة قسنطينة، سنة 1837، كانت هذه النخبة الإجتماعية -الثقافية عاجزة عن أي عمل لمقاومة الإستعمار.واذا استعرنا تعبير ابن خلدون فانها صارت في " منزلة النساء و الولدان، الذين هم عيال على أبي مئواهم، حتى صار ذلك خلقا يتنزل منهم منزلة الطبيعة "([1])

إن المقاومة التي كانت ممكنة - في نظرنا- ضد الإستعمار أنذاك، كما أثبتت الأحداث فيما بعد، كانت تتمثل في التركيز على أهالي الريف، بدل هذه النخبة المترفة التي ألفت الخضوع للقوة و ذهب بأسها.و هناك كان يمكن أن تجد الإستعداد النفسي و الحماس الديني، و البنية الإجتماعية المتمثلة في القبيلة. و لكن، هل كان في مقدور أحمد باي أن يعتمد على القبيلة ؟

إننا، في سبيل الإجابة عن هذا السؤال، نفضل أن ننطلق من مناقشة قول للأستاذ سعد الله، بهذا الشأن، جاء فيه: " لو كان (احمد باي) يقود مقاومة شعبية، تعتمد على المواطنين لقادهم بعد سقوطه في الأرياف، و لكون عاصمة جديدة أو حتى عاصمة متنقلة، كما فعل الأمير عبد القادر بعد سقوط معسكر.."([2])

إن ما نلاحظه لدى الأستاذ سعد الله، أنه- في خضم سرده للأحداث التاريخية- يغفل البنية التاريخية للمجتمع أنذاك . ذلك أن الأمر في الريف الجزائري لم يكن -في هذه المرحلة خصوصا- يتعلق **بالمواطن الذي يتمتع بحريته و إستقلالبته، و لكن بالفرد الذي يخضع خضوعا كاملا للقبيلة**، و الذي لم تكن له أي صفة خارج إطار قبيلته، إذ أن قرارات الحرب و السلم نفسها كان يتخذها شيوخ القبيلة، التي تشكل - في حد ذاتها- قوة عسكرية، بإعتبار أن معظم أفرادها كانوا مسلحين .

([1]) إبن خلدون، المقدمة ، ص 218.

([2]) سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، ص.162

إن تحليل **مارسيل ايميريت** (1) يعطينا صورة أوضح حول بنية بايلك قسنطينة مقارنة مع بايلك وهران، في هذه المرحلة، و من خلاله يظهر لنا وضع القبيلة و موقفها من أحمد باي و سلطته .إن الفارق العميق بين السلطة السياسية في الشرق و مثيلتها في الغرب الجزائري- كما يذكر هذا المؤرخ -يتمثل في كون **نظام المخزن** في بايلك وهران كان يشكل من قبائل كاملة. و كانت هذه القبائل هي التي تشكل القوة المحاربة، التي يسهل تحريكها في الحرب، بإعتبار القبيلة في حد ذاتها منظمة و مسلحة ذاتيا. كما أنها كانت تعتمد على فلاحة أراضي البايلك، مما يعزز ارتباطها بالسلطة المركزية. و كان الباي يختار موظفيه من هذه القبائل،وذلك في مقابل إعفائها من الضرائب .

و قد سلك الأتراك في وهران سياسية فعالة للمحافظة على ولاء هذه القبائل،اذ يذكر نفس المرجع أنهم كانوا يفرضون عليها أن تخزن محصولها الفلاحي داخل القلاع العسكرية، و أن يترك شيوخ القبائل جزءا من عائلاتهم داخل سكناتهم بالمدن، و هذا-في رأينا - عنصر قوة لا يمكن تجاهله لفرض السلطة على هذه القبائل .

أما نظام المخزن في بايلك قسنطينة، و تحت سلطة أحمد باي، فلم يكن يتكون من قبائل منظمة و مسلحة، و لكن من مجموعة من المزارعين الذين يفلحون أراضي **العزل** AZEL التي يملك البايلك أكثر من ثلثيها.و لم تكن السياسة المالية التي كان يتبعها أحمد باي لتجلب إليه ولاء القبيلة، ذلك أنه حرم نظام المخزن من جميع الإمتيازات المالية و أخضعه- مثله مثل القبائل الأخرى- لنظام **الحكور**.و قد كسب بذلك رضى السلطة المركزية، و لكنه خسر القبائل التي كانت توجد في بايلك قسنطينة، و صار يعرف بالطاغية.

و عن سوء سلوك أحمد باي مع القبائل في مقاطعة قسنطينة، يقول بوضربة بأنه " كان مخزيا طوال المدة التي سبقت دخول الفرنسيين، و إن جميع الذين أحسنوا إليه عندما كان من المغضوب عليهم، ظنوا أنه سيجازيهم، و قد أصبح بايا . و لكنهم أخطأوا في حسابهم، و خدع بهم جميعا، فقضى عليهم واحدا واحدا، و خاصة الشيخ **المنصور** و كثير من رؤساء قبائل **الحنانشة** (...) و كان السكان يشكون منه إلى الجزائر في كل يوم تقريبا. و بما أنه كان يدفع الضرائب كاملة في حينها و معها هدايا ثمينة لم يقدمها من كان قبله من البايات، فإن الداي كان يغمض عينه عن الشكايات .."(2)

و يتحدث احمد باي نفسه، في مذكراته، عن الحملات التي كان يشنها أثناء احتلال عنابة على قبائل الصحراء و قبائل وادي ريغ، و كذلك موقفة من شيخ تقرت، إذا كان يشعل الفتن بين القبائل، حتى لا تتوحد ضده، و يسهل عليه- بعد ذلك- أن يخرب بلادهم (3).

---

(1) Émérit. l'Algérie à l'époque d'Abdelkader. p p .235-237

(2)الزبيري ،المصدر السابق ، ص ص. 118-119

(3)**نفسه، ص.ص.**40-41.

الناحية السياسية كان يتمثل في إضفاء الشرعية على الباي الذي تعينه السلطة المركزية.

ثانيا: ان هذه النخبة من الشرفاء كانت تخاف من القبائل المجاورة التي كانت تهدد وجودها و مركزها ، و بالتالي فإنها كانت تعمل للمحافظة على الوضع السياسي و الإجتماعي القائم، من أجل حماية وجودها و إمتيازاتها.

ثالثا: إن الإصطلاحات التي أدخلها- من قبل- **صالح باي** على شؤون الأوقاف،بفرضه الرقابة الإدارية المباشرة على الوكلاء ، قد زادت من تبعية النخبة الدينية للسلطة المركزية، و بالتالي منعت بروز أي عمل سياسي مستقل لها .

و عندما دخل الإستعمار مدينة قسنطينة، سنة 1837، كانت هذه النخبة الإجتماعية -الثقافية عاجزة عن أي عمل لمقاومة الإستعمار .واذا استعرنا تعبير ابن خلدون فانها صارت في منزلة النساء والولدان، الذين هم عيال على أبي مثواهم، حتى صار ذلك خلقا يتنزل منهم منزلة الطبيعة "[1]

إن المقاومة التي كانت ممكنة – في نظرنا- ضد الإستعمار أنذاك، كما أثبتت الأحداث فيما بعد، كانت تتمثل في التركيز على أهالي الريف، بدل هذه النخبة المترفة التي ألفت الخضوع للقوة و ذهب بأسها.و هناك كان يمكن أن تجد الإستعداد النفسي و الحماس الديني، و البنية الإجتماعية المتمثلة في القبيلة. و لكن، هل كان في مقدور أحمد باي أن يعتمد على القبيلة ؟

إننا، في سبيل الإجابة عن هذا السؤال، نفضل أن ننطلق من مناقشة قول للأستاذ سعد الله، بهذا الشأن، جاء فيه: " لو كان (احمد باي) يقود مقاومة شعبية، تعتمد على المواطنين لقادهم بعد سقوطه في الأرياف، و لكون عاصمة جديدة أو حتى عاصمة متنقلة، كما فعل الأمير عبد القادر بعد سقوط معسكر.."[2]

إن ما نلاحظه لدى الأستاذ سعد الله، أنه- في خضم سرده للأحداث التاريخية- يغفل البنية التاريخية للمجتمع أنذاك . ذلك أن الأمر في الريف الجزائري لم يكن -في هذه المرحلة خصوصا- يتعلق بالمواطن الذي يتمتع بحريته و إستقلاليته، و لكن بالفرد الذي يخضع خضوعا كاملا للقبيلة، و الذي لم تكن له أي صفة خارج إطار قبيلته، إذ أن قرارات الحرب و السلم نفسها كان يتخذها شيوخ القبيلة، التي تشكل – في حد ذاتها- قوة عسكرية، بإعتبار أن معظم أفرادها كانوا مسلحين .

([1]) إبن خلدون، المقدمة ، ص 218.

([2]) سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية، ج1، ص.162

إن ما جعل القبائل تفقد الثقة في أحمد باي والسلطة التي يمثلها، هو السياسة المالية التي كان يتبعها، و كذا الروابط التي كان ينسجها مع العائلات الكبيرة من ملاك الأراضي و رجال السيف و خاصة عائلات **ابن قانة و المقراني** (1). و ذلك على حساب القبائل ذات **القوة الحقيقية** . و هذه المواقف من البنية الفعلية للمجتمع هي التي حرمته- في رأينا- من تكوين قوة محاربة من رجال القبائل خارج مدينة قسنطينة لقد بقي يتصرف بعقلية غير واقعية مما أدى به إلى الإصطدام بالتكتلات القبلية والأحلاف العشائرية، الأمر الذي حد من قدرته على مواجهة الفرنسيين في منطقته .(2)

و قد تفطن قادة الجيش الفرنسي إلى هذه الثغرة في صفوف أحمد باي فسلكوا- إلى جانب القوة العسكرية- طريق الدبلوماسية، فحاولوا عزل شيوخ القبائل عن الحاج احمد، و جلبهم إلى صفوف الفرنسيين. أو على الأقل تحييدهم، كما فعلوا مع شيخ الحنانشة **الحسناوي** و شيخ دريد **بلقاسم بن يعقوب** و شيخ اولاد مقران **محمد القندوز** وغيرهم(3).

و قد كان هذا الوضع الذي ميزه غياب دور الطريقة والقبيلة بمنطقة قسنطينة- جزئيا أو كليا- في صالح الإستعمار. اذ سهل عليه فرض السلطةعلى المجتمع القسنطيني سنة 1837. و لكن ينبغي الإشارة- هنا-إلى أن الإستعمار قد حافظ على بنية هذا المجتمع و عين خلفاء من النخبة المدنية التقليدية لفرض النظام (4) و هذه النخبة التي دعم الإستعمار وجودها سوف يكون لها دور هام في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (5).

و هكذا تبدو لنا المدينة، إلى نهاية الخمسينيات محرومة من عناصر القوة، بينما سمح بتوغل الإستعمار فيها و هو الأمر الذي يدفعنا إلى البحث عن عناصر هذه القوة في الريف الجزائري .

---

(1) Nadir (A.), Op.Cit.Art. cite p .225

(2) سعيدوني (ناصر الدين)، المرجع السابق، ج2،ص211.

(3) سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية ، ج.1،ص.155 - 156

(4) Emérit l'Algérie à l'époque d'Abdelkader, p p. 238-239

(5) Lacheraf , Op.Cit. p .180

المطلب الثاني: بنية الريف في مواجهة الغزو

سوف نتناول في البداية، التطور الذي حدث في نظرة الإستعمار إلى بنية المجتمع الجزائري، ثم نتحدث عن مقاومة القبيلة و الطرق الصوفية في هذه المرحلة.

1-نظرة الإستعمار إلى بنية الريف (العائق):

لقد أخذ الإستعمار، الذي تقوم نظريته أساسا على مبدأ الإستغلال، يتجه تدريجيا نحو فكرة الإدماج، الذي يعني إلحاق جزء من الأرض الجزائرية- إداريا- بالقوانين المعمول بها في فرنسا. و منذ 15 افريل 1845 تم إلحاق جزء من أرض الجزائر (القطاع المدني) بفرنسا، و تم تطبيق قانون 1837 الفرنسي، المنظم لعمل البلديات . و خلافا لما كان معمولا به في فرنسا، فإن شيوخ البلديات الفرنسيون كانوا يتقاضون أجورهم من الخزينة البلدية التي يتم تموينها عن طريق الضرائب التي تؤخذ من الأهالي. و بالتالي فإن مفهوم الإدماج لدى الإستعمار قد ارتبط -في هذه المرحلة من تاريخ الجزائر -بتحقيق مصالح المعمرين من الفرنسيين و الأوربيين المتجنسين.([1])

و لكن هذا المشروع لا يمكن أن يتم دون **الإصطدام** ببنية المجتمع الجزائري . فإذا كانت المدن قد صارت في قبضة الإستعمار، بحيث أصبحت بناها الأصلية مهددة بالتحطيم و إعادة البناء على أساس انماط ثقافية إجتماعية أخرى تحددها فئة المعمرين التي تملك سن القوانين.([2]) فإن القوة الحيوية الإجتماعية و الثقافية، في هذه المرحلة، كان يتوفر عليها الريف الجزائري، و خصوصا داخل بنية القبيلة و الطرق الصوفية. و قد كان على الإستعمار أن يجرب جميع الطرق ، من أجل أن يصل إلى هذه الحقيقة، التي تعتبر اليوم بالنسبة إلى المؤرخ أمرا بدهيا.

إن منظري الإستعمارظلوا – في هذه المرحلة- يعانون من عقدة ما يسمونه **التعصب** الديني ، الذي لا يعني في حقيقة الأمر سوى جهلهم بنية (المجتمع الجزائري)، حيث يقول بعضهم : " لقد حاولنا جاهدين التخفيف من هذا التعصب الشديد لدى الأهالي، و لكن جهودنا إصطدمت بفعالية المرابطين و الطرق الصوفية، الذين يسيطرون على توجيه الجماهير، و يحرضونها على محاربتنا . هذا من ناحية، و من ناحية أخرى فقد أهملنا امرا أساسيا و هو ان تقاليد المجتمع الذي نواجهه تتصادم مع قوانينا، لأن هذه التقاليد مستمدة من دين سماوي، و هي التي تنتصر في كل مرة، و تجعلنا دائما نلجأ إلى اعمال التحطيم الوحشية ... ([3])

([1]) Agéron (CH.R). L'hsitoire de l'Algérie contemporaine. p .24

([2]) Lacheraf (N.). Op.Cit. p. 178

([3]) Dépont et Copolani. Op.Cit. p.237

و هذا التصور الناضج نسبيا-في نظرنا- هو الذي دفع الجنرال بيجو، بعد تعرفه على بنية المجتمع الجزائري، إلى نقل الحرب إلى الريف، و انتهاج اسلوب الأرض المحروقة، الذي مكنه أخيرا من القضاء على مقاومة الأمير عبد القادر، سنة 1847 .(1)

و الذي جعلنا نصف هذا التصور بأنه وصل إلى مستوى لابأس به من النضج، هو أن خطواته الأولى لم تكن بهذا المستوى من وضوح النظرة، خاصة فيما يتعلق بوجود بنية اجتماعية ثقافية أخرى تختلف عن بنية المدينة، بل تؤثر على المدينة ذاتها(2)، و تشكل- تقريبا- الواقع الجزائري كله، في ذلك الوقت. لقد كان حمدان خوجة، في المذكرة التي قدمها إلى اللجنة الإفريقية سنة 1833، يحرص على تبيان الحقيقة السابقة. و ينطلق- كرجل سياسة- من نقطة تهم الإستعمار، و هي مسألة إقتصادية تتعلق بتموين المدن بالمواد الغذائية، و بأمن الطرق و المواصلات.

يقول حمدان خوجة: " و لكي نبرهن أيضاعلى أن البدو و القبائل هم القاعدة المؤسسة لثروات هذه الإيالة، ينبغي التذكير هنا بأن الجزائر قبل الغزو كانت معروفة لدى الجميع بأنها مخزن أوربا (...) أما الأن فعلى العكس. إن العيش في الجزائر لا يقل غلاء عما هو في فرنسا . و السبب في ذلك أن وسائل الإتصال بسكان الداخل مقطوعة . و هكذا إذن فإن ثروات الإيالة و إطمئنانها و ازدهارها موقوف على هؤلاء السكان ..."(3)

لقد أراد حمدان خوجة أن يقنع هذه اللجنة، المكلفة بالتحقيق في الوضع بالجزائر ، أن العداء الذي مازال مستمرا في أوساط البدو و القبائل، الذين يصعب الإتصال بهم- نظرا لبعدهم عن البطرة الفرنسية- راجع إلى كون "... هؤلاء البدو و القبائل هم القاعدة الأساسية لكل ثروة في الإيالة الجزائرية، و عليهم يتوقف السلم و الهدوء في هذا البلد..." (4)

و بما أن المعمرين كانوا يتلهفون للإستيلاء على الأراضي الخصبة، التي كانت تحت سلطة القبائل، و عليها، يتوقف بقاء هذه الأخيرة - الأمر الذي كان الإستعمار يجهله- فإن حمدان خوجة يشرح للجنة، أن هذه المسألة " متوقفة على إستقرار البدو و القبائل و طاعتهم و ترضيتهم، لأنهم هم القسم الحيوي و المعتمد عليه في القطر الجزائري بأسره، و بدونهم لا تتأتى ملكية الجزائر، و يصبح إمتلاكها أمرا مستحيلا..." (5)

إن حرصنا على ايراد النصوص التاريخية -رغم تأثيرها على سياق العرض- يرجع الى حرصنا على قراءة الأحداث في الإطار التاريخي الخاص بها. و حرصنا -أيضا- على إظهار عنصر الإستمرارية

---

(1) سعيدوني (ناصرالدين)،المرجع السابق، ج2، ص.212.

(2) Khodja (H.). Op.Cit. p p-126-127

(3) الزبيري (محمد العربي)، المصدر السابق، ص.164

(4) نفسه،ص.ص 147-148.

(5) ابن عبد الكريم (محمد)، المصدر السابق، ص.198.

في المجتمع المغربي ما قبل الإستعماري، مما يفسح لنا المجال لاعتماد تحليل ابن خلدون، الذي يقرر أن البدو أشد بأسا من سكان المدن الذين يخضعون لسلطة الدولة و مؤسساتها التربوية و الإقتصادية[1] كما أنهم " ... قائمون بالمدافعة عن أنفسهم، لا يكلونها إلى سواهم، و لا يثقون فيها بغيرهم. فهم دائما يحملون السلاح..."[2]

إن القبيلة التي تكون الريف، في هذه الحالة **قوة إجتماعية ثقافية مسلحة**، تقف في مواجهة الإستعمار الذي يمثل الإستغلال و يمر عبر تحطيم البنى الأصلية . و هذه القوة راجعة- حسب ابن خلدون و حمدان خوجة- إلى تأثير المناخ، ونمط الحياة و الطبائع التي جبلت عليها، و لكن أيضا، و هذه نقطة هامة "لأن الأفكار الدينية منتشرة في إفريقيا "[3] أكثر منها في المناطق الأخرى التي سيطر عليها الإستعمار. و هذه النقطة الإخيرة تجعلنا نعطي أهمية خاصة لنظرة الإستعمار في هذه المرحلة إلى الطرق الصوفية التي- كما بينا في الفصل التمهيدي- لا تنفصل في الجزائر عن بنية القبيلة إذا لم تتحد معها و رتتطبق تماما.[4] إننا لا يمكن أن نجزم أن منظري الإستعمار كانوا يعرفون كل شيئ عن الطرق الصوفية في هذه المرحل. و رغم أن بعضهم قاموا بزيارة الى تركيا أو إلى فاس، و اعتمدوا على التشابه بين السكان في المبادئ العامة، فإنهم- في النهاية- لم يكونوا يعرفون، حسب تعبير حمدان خوجة، سوى أسماء بعض الأماكن و الجبال و السهول، و أسماء بعض القادة من ذوي النفوذ و رجال الدين [5] .

أما الذي يمكن أن نجزم به فهو أن ما كان يهم الإستعمار بالنسبة إلى الطرق الصوفية هو موقف هذه الطرق من وجوده، في الجزائر، و الإفكار الدينية التي تقوم بترويجها، و التأثير الروحي الذي تمارسه على أتباعها، إلى درجة أن وصفها بعض الجمهوريين العلمانيين بأنها منظمات سياسية-دينية، تقوم بالتأمر في الظلام ضد سلطة الاستعمار.[6]

لقد حاول حمدان خوجةن سنة 1833، أن يعطي صورة صحيحة عن مكانة الطرق الصوفية من بنية المجتمع بأكمله، و أن يبرز أن سيطرة هذه الطرق راجع إلى ثقافة المجتمع و الأفكار المنتشرة أنذاك، و يبين أن الأتراك حافظوا على الوضع السياسي، عن طريق المحافظة على الزوايا و الأضرحة التي يعتبرها المجتمع الريفي خاصة امرا مقدسا " و هم على إستعداد لقتل أصدقائهم و أبائهم إذا علموا بإحتقارهم للمرابطين أحياء أو أمواتا "[7]

([1]) ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمان)، المقدمة، ص .220.

([2]) نفسه ، ص.219.

([3]) الزبيري (محمد العربي)، المصدر السابق، ص.158.

([4]) Babes (L.). Op.Cit. p.

([5]) الزبيري (محمد العربي)،المصدر السابق، ص.158.

([6]) Adala. Op.Cit. p p.250-251

([7]) Khodja (H.). Op.Cit. p p.95-96

و بدل أن يسلك الإستعمار الطريقة نفسها، في المحافظة على الأماكن المقدسة، فإنه، في بداياته خاصة، قام بتحطيمها(1)، و هو أمر سوف يكون له تأثير كبير في مقاومة الأرياف .و لا نستبعد أن الأحداث الجزئية نبهت الإستعمار إلى أهمية المرابطين و الصوفية، و قد حدث هذا فعلا، بعد إعتقال مرابط القليعة الذي كان يمثل الشخصية الأكثر تأثيرا في البلاد، إذ كان يحمي المسافرين، و طرق التجارة الداخلية، و قد كان إعتقاله مثيرا لسخط السكان.(2)

و قد جاء رد وزارة الحربية على إحتجاج حمدان خوجة حول إحتجاز المرابط و القاضي بالقليعة تقول: " إن الأولياء و المرابطين يعدون من هؤلاء الشعوب المتعصبة، و هم ذوي تأثير كبير على الأهالي. إلا أن إستخفافنا الطبيعي، بكل المعتقدات الدينية جعلنا نهمل أهميتهم كثيرا . و كل ما قاله حمدان خوجة حول التأثير الذي يتمتعون به لدى القبائل، يستحق إهتماما جديا و بالغا..."(3)

و قد شرع الإستعمار – تدريجيا– في استعمال رجال الطرق الصوفية و المرابطين لخدمة مصالح و تهدئة الأهالي. و قد كان المارشال بيجو– بعد ذلك– لا يكف عن إعطاء إهتمام خاص لهؤلاء، إذ جاء في منشور مؤرخ في 17 سبتمبر 1844 مايلي: " أنه يمكن في بعض الأحيان تعيين بعض رجال الطرق الصوفية، في مناصب السلطة، و يجب معاملتهم دائما بإحترام، كي نجعل منهم أصدقاء متعاونين "(4)

و سوف يكون لهذا الموقف الجديد من بيجو، في تعامله مع الطرق الصوفية نتائج إيجابية في فرض سلطته . و قد ظهر هذا النجاح في دور التيجانية في انحسار نفوذ الأمير عبد القادر في الصحراء، و دور مقدم الطريقة في تلمسان في احتلال هذه المدينة سلميا، و كذلك مساعدة التيجانيةللإستعمار في احتلال بسكرة، دون مقاومة تذكر(5) و الأمثلة على ذلك كثيرة في هذه المرحلة.

و قبل الوصول إلى هذه النتيجة المرضية للإستعمار، كانت القبيلة و الطرق الصوفية و المرابطون قد قاوموا الإستعمار بإستعمال عناصر القوة المتوفرة في الريف الجزائري، أنذاك، و هو ما سوف نحلله في العنصر القادم.

---

(1) Ibid , p. 51

(2) Ibid. p. 77

(3) التميمي (عبد الجليل)، المصدر السابق، ص.ص 160-160

(4) Dépont et Copolani. Op.Cit. p.283

(5) Ibid. p. 264

2-مقاومة القبيلة

إن الإشكالية الأساسية التي توجه موضوعنا تجعلنا نطرح السؤال التالي: هل كان إنطلاق المقاومة في الأرياف راجعا- كما يقول سعد الله- إلى " سقوط الحكم المركزي و ظهور الفراغ السياسي، و عجز المدن عن صنع قيادة جديدة " ([1]) ؟

إن الدارسين- كما يقول الأستاذ سعد الله نفسه- يعرفون أن المجتمع الجزائري في الريف " كان مجتمعا قبليا في أساسه، رغم خضوعه لسلطة العثمانين، في دفع الضرائب و الحرب عند الخطر، فقد كان يؤمن بوحدة العرش والولاء للقبيلة و الطاعة للشيخ و المرابط . و كانت بين المدينة و الريف علاقة مصالح إقتصادية، أكثر منها علاقة إحترام أو ولاء سياسي "([2])

و لقد أوردنا القولين للأستاذ سعد الله من نفس المرجع، لكي يتضح لنا مدى التناقض، أو على الأقل القول بالشيئ و ضده لدى المؤرخ الذي لا يأخذ، في عين الإعتبار بنية المجتمع الجزائري في خضم سرده للأحداث التاريخية.

إن الإستعمار عندما إحتل الجزائر، كان -في رأينا- يهدد، بالنسبة إلى الريف الجزائري خصوصا، بنية القبيلة ذاتها، و جميع القيم التي تساهم في تماسكها، بما في ذلك الإرتباط بالأرض. لذا فإن مجموع القبائل، في الريف الجزائري، قد قاموا بالدعوة إلى الجهاد، و استمرت بنية القبيلة كقوة إجتماعية ثقافية مسلحة إلى وقت متأخر من القرن التاسع عشر، بينما سقط الجهاز السياسي لدولة داي الجزائر و جميع فروعه في الأقاليم، في وقت قصير جدا، لأنه -في رأينا- لم يكن تجسيدا لسلطة مجموع القبائل، بما فيها قبائل المخزن التي كانت خاضعة لمصالح السلطة المركزية([3]).

لقد بدأت مقاومة القبيلة للإستعمارمباشرة مع بدايات الإحتلال، فعندما أحس الجيش الفرنسي بالإختناق الإقتصادي و العزلة السياسية في العاصمة، حاول ديبريمون أن يفك هذا الحصار بالخروج على رأس حملة نحو البليدة. و كان عليه أثناء ذلك أن يعبر أوطانا (أعراشا)، يسكنها أقوام غيورون على فلاحتهم و حريمهم، ويأنفون من الغريب مهما كان، فما بالك إذا كان هذا الغريب **نصرانيا** رافعا علامةالصليب و راية الإحتلال ([4]). و لما علم قواد و رؤساء الأوطان و القبائل العديدة في المنطقة بنية ديبورمون، اجتمعوا في مؤتمر واحد في البرج البحري يوم 23 يوليوه 1830، و قرروا خلال ذلك، إعلان الحرب على العدو و عدم تركه يخترق أرضهم . و فعلا فقد هاجمت قوات هذه القبائل مجتمعة

([1]) سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ص.ص. 120-_121

([2]) نفسه، ص.255.

([3])عدي (الهواري)،المرجع السابق، ص.ص. 32_33.

([4]) سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية،ج1.ص.ص 29_30.

جيش دي يورمون أثناء عودته الفاشلة من البليدة، و أعطوا الجيش الفرنسي درسا، جعله لا يعاود الخروج من العاصمة إلا في عهد كلوزيل(1).

و قد حدثت نفس المقاومة في سهل المتيجة سنة 1831 ،والذي كان مقسما إلى أعراش، و على رأس كل عرش شيخ أو قائد (2) و كذلك كانت منطقة المدية –خلال سبع السنوات الأولى من الإحتلال – منطلقا للمقاومة المسلحة صوب مدينة الجزائر ، والتي قادتها الأعراش، في الأربع سنوات الأولى، و منهم العبيد، الدوائر، أولاد حسن بن علي، أولاد مختار إلخ..،أو تلك التي قادها الحاج موسى الدرقاوي(بوحمار) الذي استمر حتى بعد خروجه من المديةفي تأليب الأعراش على محاربة العدو، و كذلك أثناء عهد الأمير عبد القادر (3).وكانت نتيجة ابادة قبيلة العوفية (وادي الحراش)أن بدأ الكفاح المسلح والذي استغرق طويلا في سهل المتيجة، وفي أماكن أخرى. اذ تذكر المصادر الفرنسية بهذا الصدد عدة غارات ضد برج القنطرة سنة 1845وحتى قبل هذا التاريخ (4)

و حتى لا نضيع في خضم سرد الأحداث خارج سياقها في بنية المجتمع الجزائري، فإننا نطرح السؤال التالي: ما هي الدوافع التي حملت القبيلة و الأعراش و العائلات الكبيرة المكونة لها على مقاومة الإستعمار؟ ألم يكن تحالفها مع الإستعمار أضمن لبقائها و مصالحها، بإعتبار النظام السياسي المركزي في نهاية الأمر لن يكون سوى شكليا مثلما بالجزائر كان عهد العثمانين؟

إنه بالإضافة إلى العوامل الذاتية و الموضوعية التي ذكرناها في بداية بحثنا، فإن هناك مسألة خاصة بالريف وحده. ذلك أن توغل الإستعمار في الريف كان يستند أساسا إلى الإستيلاء على الأرض، كان يعتمد في ذلك على قاعدة اسلامية تقول بأن الأرض ملك الله، و بالتالي فإن السلطة السياسية التي تمثله على الأرض هي التي تملك حق التصرف فيها(5).

ويذكر ايميريت أن ENFANTIN المعروف بكونه أب السانسيمونيين زار كلا من سكيكدة وعنابة و القالة وتجول بها عدة أيام والتقى في عنابة مع أحد القضاة المعروفين بولائهم للسانسيمونية وهو القاضي MARION الذي " تابع باهتمام حركة المجتمع الجزائري وتطوره منذ 1830 وكان على دراية عميقة بمسألة الملكية العقارية عند المسلمين ،ونشر بالجزائر تقريرا حول قوانين الملكية العقارية عند العرب ،وهذا التقرير هو الذي ألهم كثيرا من منظري الاستعمار وقد جاء في مضمونه ما يفيد بأن الملكية الفردية لا وجود لها بالجزائر باستثناء المدن وما حولها . أما أراضي القبائل فلم تكن يوما ملكا لأحد ، ولم يكن لشيوخ القبائل فيها سوى حق الانتفاع . وبالتالي فانه لا يوجد بالجزائر في الواقع–بناء على هذه النظرية –

---

(1) نفسه، ص. 124

(2) نفسه، ن ص

(3) نفسه، ص.139

(4) بصاري ،"ابادة قبيلة العوفية، ، مقال سابق، ص.128.

(5) Dépont et Copolani. Op.Cit. p p.231-232

سوى أملاك مشاعة لأن الملكية منظمة بالقرآن وهي بذلك ملك لله وللحكومة التي تستولي عليها لصالح التعمير .. "([1])

ومن هنا فقد أخذت الإدارة الإستعمارية تضع يدها على الأراضي التابعة للأوقاف، و تفرض الحجز على أراضي المهاجرين، و أراضي القبائل الثائرة، و كذلك أراضي البايلك و الأراضي غير المزروعة([2]).

إن الريف الذي كان مكونا من قبائل تعتمد في بقائها -أساسا- على الأرض، لا يمكن كما يصرح بذلك حمدان خوجة " أن تكون له فكرة طيبة عن الفرنسيين، عندما يرى أن وجودهم أشعل حربا مؤذية (...) و أن فلاحته قد أهملت تقريبا، و تجارته مع الشعوب الأخرى قد إنقطعت "([3]). بذلك يمكننا أن نجزم أن القبائل التي كانت تشتغل بالفلاحة قد شعرت بالخطر على وجودها، في حالة ما إذا إنتزعت منها الأرض، مصدر رزقها الوحيد، و عامل تماسكها.

و يمكن أن نتأكد من ذلك أكثر إذا لاحظنا تأثير نظام الملكية في مقاومة القبيلة، إذ نلاحظ أن النواحي التي كان السكان فيها يستغلون الأرض بأنفسهم و لفائدتهم الخاصة كدواخيل بايلك الغرب و جهات التيطري و أطراف بايلك الشرق، هذه النواحي كانت المقاومة بها شديدة، و استمرت طويلا. أما النواحي التي سيطر فيها موظفوا البايلك و حضر المدن على الأراضي الزراعية، كسهول متيجة و نواحي عنابة و قسنطينة، أو التي استقرت عليها قبائل المخزن كسهول وهران و مناطق الهضاب العليا القسنطينية، فإننا نلمس إرتباط المقاومة فيها بأوضاع المدن الواقعة قريبا منها ([4])

و يظهر أن بيجو قد تفطن إلى دور الأرض في إذكاء روح المقاومة في الريف، فبعد أن توغلت قواته في كامل التراب الجزائري، بدأ يحرص على الأمن و الإستقرار، لأجل المحافظة على مصالح الإستعمار، و بالتالي فقد عمل جهده لأجل منع مصادرة الأراضي الفلاحية التي مازال يملكها الجزائريون لأنه -في نظره- " لا بد من تأمين غذائهم، إذا لم نرد أن ندفعهم إلى الثورة الدائمة علينا.."([5])

و يبدو من الأسلم علميا -في رأينا- أن يتجنب الباحث في التاريخ الجزائري إعطاء الدفاع عن الأرض، في هذه المرحلة مضمونا أيديولوجيا محددا، لأن مجتمع الريف كان بعيدا عن التأثير بمفاهيم الوطنية و القومية. و بذلك فإن مقاومة الريف من 1830 إلى 1871، على الأقل، " قد ظلت -كما يقول لشرف- دون بلورة نظرية مذهبية و أيديولوجية "([6]) و لذلك فإننا نقترح البحث عن محفزات الدفاع عن

([1]) Émérit .Les Saint -Simoniens en Algérie .p.101

([2]) Agéron (ch.R). Histoire de l'Algérie contemporaine.(Que sais-je?) .p.23.

([3]) الزبيري (محمد العربي)، المصدر السابق،ص.ص 164_165.

([4]) سعيدوني (ناصر الدين)، المرجع السابق، ج2.ص.210.

([5]) Germain (R.). Op.Cit.p.VIII

([6]) Lacheraf (M.). Op.Cit. p 112.

الأرض لدى قبائل الريف **في المشترك الإجتماعي الثقافي** الذي يضمن تماسك القبيلة من ناحية، و يحفزها للدفاع عن وجودها، ضد الإستعمارمن ناحية أخرى.

إن القبيلة، في تلك المرحلة، كانت عبارة عن تنظيم داخلي محكم، موجه أصلا لمقاومة أنواع الإعتداء الخارجية(1). و من البدهي- حتى فيزيانيا- أن ترجع قوة رد الفعل على الإعتداء الخارجي إلى قوة التماسك بين مكونات القبيلة، التي يمثلها العرش و العائلة الموسعة. و لايمكن في هذه الحالة الحديث عن الفرد إلا تجوزا، إذ أن هذا الفرد ذاته " يصدر في أفعاله عن مخيال القبيلة، فهو عندما يغزو أو يقوم بأخذ الثأر لا يفعل ذلك لنفسه فقط بل " للقبيلة " . إنه يصدر- إذن- في نشاطه الإجتماعي السياسي خاصة عن " قهر " إجتماعي، عن جبرية قبلية تمنعه من تصور أنه كان بإمكانه أن يفعل غير ما فعل...."(2).

و هذا الأمر هو الذي يجعلنا نرجع إلى التفسير الإجتماعي لإبن خلدون، ونوظف مفهوم " العصبية " لدى القبيلة الواحدة، التي ترتبط داخليا عن طريق النسب، أو عن طريق الحلف أو الولاء . لأن المقاومة هنا تعود إلى " نعرة كل واحد على نسبه و عصبيته (...) و ما يجعل الله في قلوب عباده من الشفقة و النعرة على ذوي أرحامهم و قربائهم موجودة في الطبائع البشرية، و بها يكون التعاضد و التناصر و تعظم رهبة العدو لهم.." (3).

هذا عن المشترك الاجتماعي، أما المشترك الثقافي فيرجع -في نظرنا- إلى ارتباط القبيلة بالطرق الصوفية، إذ أثبت إحصاء 1851، أن نسبة 24 % من سكان الجزائر كانوا ينتمون إلى الطرق الصوفية، أي بين كل أربعة جزائريين كان يوجد فرد واحد ينتمي إلى الطرق الصوفية .و هذا ما يفسره بعضهم، - جزئيا على الأقل- بأن قبائل كاملة، في هذه المرحلة، اعتبرت منتمية إلى الطرق الصوفية(4) و كانت تخضع خضوعا كاملا لشيوخ الطرق والمرابطين و تعتقد حصول النفع و الضر على أيديهم (5) بل إن قبائل كاملة تكون أحيانا ذات أصل طرقي مثل اولاد سيدي الشيخ (6) .

و هذا الأمر يفيدنا من حيث أنه يبين أن الطريقة تؤثر على مقاومة القبيلة، مما يجعلنا نحتاج إلى تحليل الدور السياسي، و كيفيات عمل الطرق الصوفية و المرابطين في هذه المرحلة، خلال مقاومة الإستعمار.

---

(1) Reymond (M.), » L'élargissement des droits politiques », **Revue Afr.**, 1927, p.127.

(2) الجابري (محمد عابد)، العقل السياسي العربي، ص.260.

(3) ابن خلدون (أبو زيد، عبد الرحمان)، المقدمة، ص ص.223_226.

(4) Agéron (Ch. R), Histoire de l'Algérie contemporaine.(1871_1954).p.70

(5) Khodja (H.), Op.Cit. p.48.

(6) Agéron (ch. R), Op .cit. p.170.

3- دور الطرق الصوفية و المرابطين:

لن ندخل في تفاصيل الأحداث التاريخية، التي ساهمت فيها الطرق الصوفية و المرابطون، في الجزائر، لأن ذلك مبسوط في كثير من الكتابات القديمة و الحديثة. و لكننا سوف نركز على بنية هذه الطرق الصوفية، و علاقاتها مع المحيط الإجتماعي و الإقتصادي الجديد و المتولد عن الاستعمار، و كيفية ممارسة تأثيرها، و كذا أهم أفكارها و إتجاهاتها .

إن المرابطين و مشايخ الطرق الصوفية، كانت لهم سلطة كبيرة على سكان الأرياف خاصة (1) و ذلك راجع في رأينا إلى سببين: هيمنة هذه الطرق الصوفية على الجانب الروحي الثقافي للسكان، و كذلك لإرتباط الزاوية التي هي النقطة المادية للطريقة بمصالح سكان الريف الإقتصادية و الإجتماعية.

و عندما دخل الإستعمار أرض الجزائر، كانت الطرق الصوفية، في الريف خاصة هي التنظيمات الوحيدة التي تقوم بدوراجتماعي في الإصلاح بين القبائل المتقاتلة و منع إراقة الدماء(2). و ذلك إلى جانب دورها الروحي، و الدور السياسي العسكري الذي تحملته الزوايا بعد دخول الإستعمار(3) باعتبارها القوة الوحيدة التي كانت، أنذاك، قادرة على الوقوف في مواجهة توغله في الجزائر(4).

و لكن عنصر النجاح الأساسي للطرق الصوفية في مجتمع الريف، خصوصا، يرجع إلى استجابتها لحاجات إجتماعية و مشاعر روحية دينية راسخة لدى السكان . وهذه نقطة أساسية لفهم مدى تأثير هذه الطرق، و استمرار سيطرتها السياسية، إذ كانت تعبر عن حساسية هؤلاء السكان و تعطشهم للأمان الروحي، و شعورهم بالتضامن و الأخوة، و اطمئنانهم على مصيرهم الديني عندما يكبرون (5).

كما أن القاعدة المادية التي تستند إليها الزاوية، هي الأوقاف من الأراضي الزراعية ، فلا تكاد توجد زاوية، في الريف، إلا و موجود حولها هذا النوع من الأراضي الشاسعة، المحبوسة على خدمتها و خدمة مريديها (6). و بإجتماع السلطة المادية و الروحية للزاوية، تبدو هذه الأخيرة كأنها **دولة داخل الدولة** تقوم بجمع الإشتراكات و الأموال بأنواعها من كامل التراب الجزائري، و تسيطر على اتباعها سيطرة كاملة.(7) و بما أن الإستعمار كان يهدف إلى **فرض سلطته** على المجتمع الجزائري، فإن اصطدامه بالطرق

---

(1) Khodja (H.).op.cit.p.52.

(2) Ibid.p.50.

(3) Roudout (R.). Op.Cit.p.206

(4) Nadir (A). Op.Cit.Art. cite, p.830.

(5) Agéron (ch.R). Histoire de l'Algérie contemporaine (1875_1954), p.175.

(6) Dépont (O.) et Copolani (X.). Op.Cit. p.227.

(7) Ibid. p 243.

الصوفية و المرابطين كان أمرا مؤكدا و هو ما حدث فعلا. و لقد بدأت فعالية الطرق الصوفية والمرابطين، في الريف، تظهر مباشرة مع بدايات الإحتلال(1) .قد كان منظروا، يصفون طلبة الزوايا بأنهم مشاغبون، و يصفون هذه الزوايا نفسها بأنها مراكز التآمر مثلما يقول بلانقيني BLANGINI و مراكز الإنتفاضة مثلما يقول أومال AU MALE،أو ملجأ للقديسين و الدعاة المتعصبين على حد تعبير الجنرال بودو BEDEAU (2) .

و يبدو أن بعض منظري الإستعمار قد تفطنوا إلى أنه بتحطيم الا ستعمار للأوقاف و المؤسسات الإجتماعية-الثقافية التابعة لها، في المدن، فإنه كان يدعم الزوايا في الريف . إذ كانت هذه الأخيرة تستقبل المهاجرين و الثوار الذين وجدوا في الريف حريتهم المفقودة. و بالتالي فإن رقابة الإستعمار، في هذه الحالة للثوار كانت أمرا مستحيلا. و هذه النقطة هي التي كانت تلتقي حولها التقارير العسكرية في تلك المرحلة بحيث أن راندون و ماكماهون اذين كانا يسيران مقاطعة وهران، سنة 1851، قد صرحا بهذا العجز، في تقرير جاء فيه : " إن مراقبة الزوايا، يقول ماكماهون، أمر صعب، و يبدو أن علينا أن نستغرق وقتا طويلا، أو ربما كامل أعمارنا لكي نعرف ما الذي يقال و يفعل في هذه الزوايا(3) و قد استمر هذا الجهل من الإستعمار لدور الزوايا، في الريف، إلى غاية نهاية القرن التاسع عشر.

و هناك خبراء كثيرون كانوا يربطون بين مصادرة الأوقاف، و جهل الإستعمار بكيفية التعامل مع شؤون الإسلام، و بين ظهور دور الطرق الصوفية في صورة كيان متماسك و قوة سياسية- دينية سيطرت على أرواح الجماهير، و صارت توجهها كما تشاء(4). و يمكن أن نؤكد أن الطرق الصوفية و المرابطين قد قاموا بإستغلال مشاعر السخط لدى السكان، و الناتجة عن الضربات القاسية التي وجهها الاستعمار للمؤسسات الإسلامية في الجزائر. ذلك أن شيوخ الزوايا كانوا يعلنون جهارا لمريديهم أن الغزو الأوربي، وعملية الإختراق التي تقوم بها الحضارة الغربية، يمثلان خطرا محدقا بالإسلام . و أن عليهم أن يتحدوا من أجل تجديد العقيدة الإسلامية و بعث الحياة فيها. (5) و لهذا فإن أحد الكتاب الغربيين(6) يؤكد أن جميع الثورات المتتابعة و المتقاربة زمانا، و التي قام بإشعالها الشعب الجزائري كانت قائمة اساسا على قاعدة الإستفزاز الديني.و الذي يهمنا، هنا، هو أن نفهم طريقة تأثير الزاوية، و المعطيات الإجتماعية الثقافية التي

---

(1) Ibid. p.258.

(2) Turin (y.). Op.Cit. p.137.

(3) Ibid. pp. 137_138.

(4) Dépont (o.) et copolani (x.). Op.cit. p.192.

(5) Binger (L.G)."Le péril de l'Islam ".In: **Renseignement coloniaux.** Bulletin du comité de l'Afrique française. n°3 (1906). pp. 89_96.

(6) Bûhrer (J.) et André (p.J). Ce que devient l'Islam devant le monde moderne. ed. Berger levrault. (s.l). 1952. p.254

جعلتها تنجح في عملية إستفزاز المشاعر الدينية.

إن الزاوية إذا أخذناها، في إطار بنية المجتمع كانت تمنح الجزائريين إطارا جاهزا لتصعيد ما يسميه الغربيون **التعصب الديني** ، إذ يتراءى الشيخ لمريديه في صورة بطل الإسلام المضطهد و المعتدى عليه. مما كان يضفي على شخصه قداسة و يمنحه شعبية لا نظير لها.

و مع توغل الإستعمار في الأرياف، تتحول الزاوية إلى ملجأ روحي يؤمه الثوار، و تصبح المكان المفضل الذي يجد فيه العزاء " الأب الذي يبكي إبنه الشهيد، و الفلاح الذي صودرت أرضه، و الثوار الذين ألجأتهم الحرب إلى الزاوية . و في الخطب الحماسية التي يلقيها شيخ الزاوية، يبلغ الحقد الدفين على الإستعمار مداه و يوجه ضد جنودنا "[1] . و هنا ينبغي أن نذكر – أيضا–دور الزوايا في الريف في تدعيم حركة الهجرة نحو البلدان الإسلامية، و الدعوة لهذه الهجرة، خاصة بعد توغل الإستعمار في الريف، إذ أصبح الأمر يتعلق بهجرة قبائل بكاملها[2].

إن التيارات الدينية–السياسية، في هذه المرحلة (1830-1851)، في الجزائر، كانت–كما تذكر الأبحاث– تتمثل في القادرية و الطيبية[3] اما الطرق الصوفية الأخرى فقد كانت فعاليتها ضعيفة في هذه المرحلة. و بما أننا سوف نتناول تحليل بنية الطريقة القادرية، لاحقا، عند الحديث عن تجربة الأمير عبد القادر فإننا سوف نركز هنا على الطريقة الطيبية و فكرة **المهدي** التي كانت تبشر بها، لأن هذه الفكرة سوف تستمر في تاريخ مقاومة الإستعمار إلى وقت متأخر جدا، و سوف تظهر في الحركة الوطنية فيما بعد.

يذكر أحمد نذير [4] أن نشاط الطريقة الطيبية ظهر سنة 1842، عندما كان المغرب الأقصى يمر بأزمة سياسية سببها دخول الأمير عبد القادر إلىالتراب المغربي. و قد تحالف حاكم وزان، و هو أيضا شيخ هذا التنظيم الطرقي، مع مولاي عبد الرحمان لإخراج الأمير من ترابه . و لأجل تحقيق هذا الهدف فقد أسست الطيبية منظمة سياسية، موازية للطريقة الصوفية، و كانت هذه المنظمة وراء جميع الثورات التي إندلعت منذ 1845 مثل ثورات بومعزة و بوبغلة، المعروفين بأبطال انتفاضة الظهرة.

و لأجل حماية هذه المنطقة الطرقية من قمع الإستعمار و كسب ثقة الجماهير– يقول نفس الباحث – فقد روجت الطيبية لفكرة المهدي. وهذه الفكرة لا نجد لها أصلا في المصادر الصحيحة، إذ لم يروها البخاري و لا مسلم، و لكن ما يهمنا هنا ليس صحتها و لكن الأيديولوجية التي يحملها –إذ أنها، كما يقول الجابري، تنطوي على " أيديولوجية المساكين، الذين لا يملكون القدرة على رفع الظلم الواقع عليهم،

---

(1) Berque (A.). Notes sur les confréries musulmanes algériennes.imp. Typographique. Oran 1919. p. 70

(2) Dépont (O.) et capolani (X.). Op.Cit. pp. 260_261.

(3) Nadir (a.). Op.Cit. p 820.

(4) Ibid. p 867

فينتظرون الخلاص على يد شخص يبعثه الله ليملأ الأرض عدلا بعدما ملئت جورا " [1]

إن الأحداث التاريخية الحاسمة، خلال الأربعينيات، تمنعنا من الإعتقاد بأن فكرة المهدي هي مجرد نزق فكري من طرف بعض الجاهلين بمصادر الإسلام. ان هذه الأيديولوجية جاءت لتعبر عن اقتراب فشل مقاومة الأمير عبد القادر، و بالتالي فقد كان دورها هو الحيلولة بين الناس و بين اليأس، و ربطهم بزعيم رمز إنها " وسيلة لرفض الهزيمة و الإنهيار، وسيلة للتمسك بالأمل " [2]

و كانت هذه الفكرة من ناحية أخرى تزرع الشك و الضعف في نفس العدو، و قد ظهر هذا في تقارير العسكريين، التي نجد فيها تعبيرا مشتركا عن الشعور بالعجز و اليأس في مواجهة شعب لا يمكن التوصل إلى فهمه [3].

إن فعالية الطريقة الطيبية في المقاومةظهرت بعد هزيمة الأمير عبد القادر، إذ يذكرأنها عقدت بين 1848 و 1851 إجتماعات لمناقشة مسألة الثورات ضد الإستعمار،و ضبط رزنامة لتواريخ اندلاعها، و الأدوار التي يمكن إعطاؤها لكل واحد من الشرفاء. و ذلك في انتظار اعلان الثورة التحريرية الكبرىحين تتجمع عناصرها و ظروفها التاريخية .[4]

و في نهاية هذا المبحث يمكن أن نقرر أن المقاومة الإجتماعية –الثقافية، خلال هذه المرحلة، كانت تستند إلى عناصر القوة، و كذلك عناصر الضعف التي تتوفر عليها كل من بنية المدينة وبنية الريف في الجزائر. و سوف تتكثف هذه العناصر كلها، و تجتمع في تجربة تاريخية مميزة هي تجربة الأمير عبد القادر، و هو ما سوف يشكل موضوع المبحث القادم .

([1]) الجابري (محمد، عابد)، العقل السياسي العربي، ص.286.

([2])نفسه، ص.288.

([3]) Nadir (A.). Op.cit .p.855.

([4]) Ibid . pp. 853_854.